خطبة صلاة الجمعة 13/4/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، المالكي، دمشق

www.dr-shaal.com

(الهروب إلى الواجب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء:83،84].

وقال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود:121،122].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:135].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:148].

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَرٌّ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ كَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ اللهُ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)) [رواه مسلم].

وأخرج ابن الأثير الجزري في جامع الأصول في أدعية الكرب والهمّ ما رواه أبو داود بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ)).

أيُّها الإخوة:

العقلاء والصَّالحون يكثرون العمل ويُقِلُّون المراء والجَدَل، والأذكياء والنَّاجحون أعمالُهم تُزاحِم أوقاتَهم، وشعور المسلم بأنَّ عليه واجباتٍ تجاه خالقه وواجباتٍ تجاه إخوانه ومجتمعه، دليلٌ على صدق عبوديته ورِفْعَةِ مكانَتِه.

ووحدهم الضِّعَاف السُّذَّج يَكْثُر فراغُهم، ويتضاعف لهوهم، وتملُّهم الأَسِرَّةُ والمهاد، وإنِّي وجدت النَّاس في الأوقات عامَّةً وفي الأزمات خاصةً صنفين: فصنف يهرُب من أداء الواجب، وصنف يهرُب إلى أداء الواجب، فأحببتُ أن أجعل خطبة اليوم بعنوان:

(الهروب إلى الواجب)

كتب أحد الدُّعاة يقول:

(الفارغون في الحياة هم أهل الأراجيف والشَّائعات، لأنَّ أذهانهم موزعةً، وإنَّ أخطر حالات الذِّهن يومَ يَفرغ صاحبه من العمل، ويومَ تجد في حياتك فراغاً فتهيأ حينها للهمِّ والغمِّ والفزع، لأنَّ هذا الفراغ يَسْحَب لك كلَّ ملفات الماضي والحاضر والمستقبل من أدراج الحياة فيجعلك في أمرٍ مريج، ونصيحتي لك ولنفسي أن تقوم بأعمالٍ مثمرة بدلاً من هذا الاسترخاء القاتل لأنَّه وَأْدٌ خفي...، إنَّ الفراغ أشبه بالتَّعذيب البطيء الذي يُمارس في بعض السُّجون بوضع السَّجين تحت أنبوب يقطُرُ كلَّ دقيقةٍ قطرةً وفي فترات انتظار هذه القطرات يُصاب السَّجين بالجنون).

إذاً قم الآن وافعل شيئاً تنفع به نفسك أو الآخرين.

أيُّها الإخوة:

المستعرض لآيات القرآن الكريم وكلماته يجد مصطلحات ثلاثة وردت بأعدادٍ كبيرةٍ جداً، هذه المصطلحات الثَّلاثة هي: (الإيمان، والعلم، والعمل). في دلالةٍ واضحةٍ إلى أنَّ هذا الدِّين مبناه على الإيمان، وركائزه على العلم، وقوته في العمل.

وإنَّك تقرأُ العمل والدَّعوة إليه، وتقرأُ البذلَ والحثَ عليه، وتقرأُ تقديمَ النَّفع والإقبال على الواجب في نصوص القرآن الكريم واضحةً، بل إنَّ القرآن يدعوك إلى فعل الواجب وعمل الصَّالحات في أوقات الأزْمة بشكلٍ خاصٍ. فتقرأ في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:9-11].

فهاهنا قَرَنَ القرآن العمل الصَّالح مع الصَّبر في دلالة واضحة بأنَّ الإسلام يدعوك للهروب إلى الواجب والمسارعة إلى العمل الصَّالح في أزْمنة الصَّبر والشَّدائد.

وفي سورة العصر تقرأ: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ*﴾.

فمقرون الإيمان بالعمل الصَّالح مع التَّواصي بالصَّبر في زمن الشِّدة والتَّواصي بالثَّبات على الحق ومعونة أهله.

وفي صحيح مسلم: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**))، قِيْلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟، قَالَ: ((**يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**))، قِيْلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟، قَالَ: ((**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**))، قِيْلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: ((**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوْفِ أَوْ الْخَيْرِ**))، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلَ؟، قَالَ: ((**يُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**)).

أيُّها الإخوة:

في الحادي عشر من آذار الماضي ضرب زلزال مدمِّرٌ قوته تسعة درجات بمقياس ريختر اليابان، وهو أعنف زلزال يضرب اليابان في تاريخها، وتبعته موجات المدِّ (تسونامي) الذي اكتسح السَّواحل اليابانية وتجاوز ارتفاعه عشرات الأمتار.

يقول المراقبون نقلاً عن وكالات الأنباء اليابانية: إنَّ حصيلة قتلى الزِّلزال فاقت الأحد عشر ألفاً، بينما زاد عدد المفقودين عن ستَّة عشر ألفاً، وتشرَّد مئات الآلاف وقدَّر البنك الدُّولي الخسائر بخمس وثلاثين ومائتي مليار دولار.

وفي تلك الأيَّام كتب بعض الصحفيين الذي عاش أيَّام الأزْمة في اليابان:

(عندما كنت أسير عائداً إلى المنزل رأيت سيِّدةً مسنَّةً تقف أمام أحد المخابز، كان المخبز مغلقاً ولذلك وقفت المرأة توزع الخبز مجاناً على المارَّة، وفي مكان آخر في الطَّريق كانت هناك سيِّدة تحمل لافتة كُتِبَ عليها: "الرَّجاء استخدام دورة المياه لدينا"، وكانت قد فَتحت منزلها للنَّاس الذين شرَّدهم الفيضان لاستخدام الحمام، وأراد زميلي في العمل تقديم المساعدة بطريقة ما، حتَّى لو كانت لشخص واحد، فكتب لافتة: "إذا لم تكن تُمانع في ركوب دراجة فبإمكاني إيصالك إلى منزلك" وقد وقف في البرد حاملاً هذه اللَّافتة.

وبسبب نقص البنزين فإنَّ محطَّات البترول معظمها مغلقة، أو عليها طوابير طويلة جداً، قَلِقْتُ كثيراً حيث كان أمامي خمس عشر سيارة، وعندما جاء دوري ابتسم العامل وقال: بسبب الوضع الرَّاهن فنحن فقط نعطي وقوداً بقيمة ثلاثين دولاراً لكلِّ شخص، فهل توافق؟ أجبت: بالطَّبع أوافق، وأنا سعيد لأنَّنا جميعاً نتشارك في تحمُّل هذا العبء، تبسَّم لي العامل ابتسامةً أشعرتني بالرَّاحة والطُّمأنينة وأزالت قلقي.(

أيُّها الإخوة:

كلُّ هذه المشاهد هروب إلى الواجب لا منه في زمن الأزْمة خاصةً، وفي زمن الأزمنة عامَّةً.

فالغني المبادر إلى مساعد الخَلْقِ المهتمُ بإيصال المعونة إليهم في زمن الأزْمة يهرب إلى الواجب لا منه، والمسؤول المسارع إلى إنصاف المظلوم وردع الظَّالم يهرب إلى الواجب لا

منه، والشَّاب المشغول بالصَّالحات المقبلُ على النَّافعات يهرب إلى الواجب لا منه، والعالِم الحريص على إنصاف الخَلْقِ والمسارع إلى إعانة المتضررين يهرب إلى الواجب لا منه.

بينما يهرب من الواجب لا إليه كلُّ طالب يقصِّر في دراسته بإرادته، وكلُّ موظف يغادر مكتبه ولا يُعِيْنُ المراجعين، وكلُّ مديرٍ يتعلَّل بالأزْمة لعرقلة أعمال النَّاس وتأخيرها، وكلُّ تاجر يُغْلي الأسعار بغير حقٍ، وكلُّ مسؤول يهتم بالحفاظ على منصبه دون الاهتمام بمصالح العباد والبلاد، وكلُّ قادرٍ على معونة النَّاس إلا أنَّه لا يفعل بل ينكفئ على متابعة الأخبار وسماع التَّحليل دون أن يبذل خيراً أو يعمل واجباً أو يُقدِّمَ معروفاً.

أيُّها الإخوة:

إنَّ الجميل كاسمه، أوَّل المنتفعينَ به الفاعلون له، (فإذا طاف بك طائفٌ من همٍّ أو غمٍّ فامنحْ غيرك معروفاً وأسدِ لهُ جميلاً تجدِ الفرج والرَّاحة. أعطِ محروماً، انصر مظلوماً، أنقِذْ مكروباً، أطعمْ جائعاً، عدْ مريضاً، أعنْ منكوباً، واسِ مصاباً، عزِّ فاقداً، تجدِ الخير يغمرك من بين يديْك ومنْ خلفِك.

إنَّ فعلَ الخيرِ كالطِّيْبِ ينفعُ حاملهُ وبائعه ومشتريهُ، وعوائدُ الخيرِ عقاقير مباركةٌ تُصْرَفُ في صيدليةِ الذين عُمِّرتْ قلوبُهم بالبِّر والإحسان) [لا تحزن لعائض القرني].

أيُّها الإخوة:

إنَّ المبادرة إلى فعل الواجب لا الهروب منه سِمَتُكُم وعادَتُكُم، ولا غرور في ذلك وأنتم تقرؤون حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المرويَ في مسند الإمام أحمد وغيره:

((إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)).

إنَّها دعوةٌ منه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى عمل الخير وفعل الواجب في أحلك الأوقات عند قيام السَّاعة إذا القبورُ بُعثرت، وإذا البحار سُجِّرت، وإذا السَّماء كُشِطَت، وإذا الجبال سُيِّرت، وإذا الوحوش حُشِرت...، في ذلك اليوم العصيب وفي تلك اللَّحظات الحاسمات إن استطعت أنْ تغرس فسيلةً أو تبذل معروفاً أو تؤدي واجباً فافعل.

أوصى بعض الحكماء ابنه فقال:

(يا بني، إيَّاك والتَّسويفَ لما تَهِمُّ به من فعل الخير، فإنَّ وقتَه إذا زال لم يَعُد إليك، واحذر طولَ الأمل فإنَّه هلاكُ الأمم، ولا تدفع الواجب بالباطل فيُدَالُ – يُقْتَصُّ– منك سريعاً).

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**إِنَّ صَدَقَةَ السِرِ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَإِنَّ صَنَائِعَ الْمَعْرُوْفِ تَقِيْ مَصَارِعَ السُّوْءِ**)) [رواه الطبراني].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**صَنَائِعُ الْمَعْرُوْفِ تَقِيْ مَصَارِعَ السُّوْءِ، وَالصَّدَقَةُ خفياً تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِيْ العُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوْفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوْفِ فِيْ الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوْفِ فِيْ الآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِيْ الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِيْ الآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوْفِ**)) [رواه الطبراني].

والحمد لله ربَ العالمين